الدرس السابع عشر

صبره ﷺ : وأما الحديث عن صبره عليه الصلاة والسلام ، فحياته ـ ﷺ ـ كلها صبر ومصابرة ، وجهاد ومجاهدة ، ولم يزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صبر ومصابرة ، وعمل متواصل منذ أن نزلت عليه أول آية ، وحتى آخر لحظة في حياته . ولقد عرف رسول الله ـ ﷺ ـ طبيعة ما سيلقاه في هذا الطريق ، من اللحظة الأولى لبعثته ، وبعد أول لقاء بالمَلَكِ ، حين ذهبت به خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى ورقة بن نوفل ، فقال له ورقة : يا ليتني كنت حيًا إذ يخرجك قومك ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « أو مخرجي هم ؟ » قال : نعم ، فإنه لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي . فوطن نفسه منذ البداية على تحمل المشاقِّ ، والإيذاء ، والكيد ، والعداوة .

ومن المواقف التي يتجلَّى فيها صبره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما تعرض له من أذى جسدي من قومه وأهله وعشيرته وهو بمكة يبلغ رسالة ربه ، ومن ذلك ما جاء عند البخاري ، أن عروة بن الزبير سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ؟ فقال : (بينا النبي ـ ﷺ ـ يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله ؟ .

وفي يوم من الأيام كان ـ ﷺ ـ يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس ، فقال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فجاء به ، فانتظر حتى سجد النبي ـ ﷺ ـ فوضعه على ظهره بين كتفيه ، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض ، ورسول الله ـ ﷺ ـ ساجد لا يرفع رأسه ، حتى جاءته ابنته فاطمة فطرحت عن ظهره الأذى .

وأشد من ذلك ، الأذى النفسي المتمثِّل في ردِّ دعوته وتكذيبه ، واتهامه أنه كاهن ، وشاعر ، ومجنون ، وساحر ، وادعاء أن ما أتى به من آيات ما هي إلا أساطير الأولين ، ومن ذلك ما قاله أبو جهل مستهزئا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) .

وكان عمه أبو لهب يتْبَعه حين يذهب إلى مجامع الناس وأسواقهم ليدعوهم ، فيكذِّبه وينهاهم عن تصديقه ، بينما كانت امرأته أم جميل تجمع الحطب والشوك وتلقيه في طريقه .

و قد بلغ الأذى قمته عندما حُوصر ـ ﷺ ـ مع أصحابه ثلاث سنوات في شعب أبي طالب ، حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع ، وتزداد عليه الأحزان حين يفقد زوجته خديجة التي كانت تسليه وتعينه ، ، ثم يفاجأ بموت عمه الذي كان يحوطه ويدافع عنه ، ويُضاعف من حزنه أنه مات على الكفر ، ثم يخرج من بلده مهاجرًا بعد عدة محاولات لقتله ، وفي المدينة يبدأ عهدًا جديدًا من الصبر والتضحية ، وحياة فيها الكثير من الجهد والشدة ، حتى جاع وافتقر ، وربط على بطنه الحجر ، يقول ﷺ : « قد أُخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يُؤذى أحد ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبد ، إلا شيء يواريه إبط بلال » .

وقد اتُّهم في عرضه ، ولحقه الأذى من المنافقين وجهلة الأعراب ، بل روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قسَّم رسول الله ـ ﷺ ـ قسمة ، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بهذا وجه الله ، قال ابن مسعود : فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته ، فتمعر وجهه وقال: « رحم الله موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

ومن المواطن التي صبر فيها النبي ﷺ ، أيام موت أولاده وبناته ، حيث كان له من الذرية سبعةٌ ، توالى موتهم واحدًا تلو الآخر ، حتى لم يبق منهم إلا فاطمة رضي الله عنها ، فما وهن ولا لان ، ولكن صبر صبرًا جميلًا ، حتى أُثر عنه يوم موت ولده إبراهيم قوله: «إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

ولم يكن صبر النبي ـ ﷺ ـ مقتصرًا على الأذى والابتلاء ، بل شمل صبره على طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث أمره ربه بذلك ، فكان يجتهد في العبادة والطاعة حتى تتفطّر قدماه من طول القيام ، ويكثر من الصيام والذكر وغيرها من العبادات ، وإذا سئل عن ذلك ، كان يقول: « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ ».